

تَحْصِيَاتُ دُرَرٍ

• إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ ،
لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي ،
سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ . . .

(١)

أخذت نسائم المساء تقبل مع الظلام من أطراف الأفق البعيد،
فتهتز لها رموس النخيل وأغصان الأشجار في حيطان ذلك الحى من
العرب وسط الجزيرة . . واستمع الدوسيون إلى صوت المنادى من
قبل سيدهم ، فخرجوا من بيوتهم ومضاربهم يحملون المشاعل قاصدين
تلك الدار المهيبة الفسيحة الأرجاء ، دار الطفيل بن عمرو الدوسى . .
وعلى رأس الدرب الممتد إلى دار الطفيل عند مفترق الطرق ،
وقف شيوخ دوس وشبابها أمام صنمهم المقدس ، ذى الكفين ، وقد
أحاطوه بمشاعلهم حتى بدارهيا خيفا ، وأخذوا يدورون حوله وهم
يرتجزون بأناشيدهم وأهازيجهم ، ملتسمين منه الرضى والعون
والتأييد . . حتى إذا ما انتهوا من طوافهم ، أخذوا سيبلهم إلى دار
زعيمهم فى أقصى الدرب ، عند ماء ذى الثرى . .

ووصلت جحافل القبيصة الخطيرة إلى الدار المهيبة وأخذوا
يتخالون بابها الضخم ، وينتشرون فى حديقتهما الغناء التى أحاطتها أسوار
النخيل وخمائل الأشجار المتشابكة من كل جانب . . ووقف الطفيل
ابن عمرو فى طلعتة الرهبة يستقبلهم ويحييهم ، وقد حمل فوق صدره
طفله الصغير عمرو بن الطفيل . . وجلس الجميع فى حلقات متقاربة
يتسامرون ويمرحون . .

ولم يمض قليل حتى خرج الخدم والعبيد يحملون بين أيديهم الألوان
المختلفة من الطعام والشراب . . فصاروا يأكلون ويشربون فى نهم
ولاسراف وصخب ، بين دقات الطبول وعزف القيان . . ومن ثم

أخذوا يتبادلون الأشعار في مدح دوس وعـلو مجدها ونفر
نسبها بين العرب ..

ولم تكن الليلة على عيشها ولها لئسى رجال القبيلة ذكر ذلك
الحدث الخطير في مكة ، منذ قام قتي بنى هاشم - محمد بن عبد الله ﷺ -
بدعوته إلى التوحيد ، ونبذ ما عليه قومه من عقائد ، ومحاربة تلك
الأرباب المتوارثة في قريش وفي غير قريش ، وتسفيها في جرأة
وشجاعة وإقدام .. فأخذ القوم يتندرون بالدين الجديد ، ويهتفون
من أعماقهم بتمجيد معبودهم ذى الكفين ..

ولجأة طغى على الحديث صوت الطفيل بن عمرو فأخذ
الجميع ينصتون ..

وأخذ الرجل المهيّب يتحدث بين القوم ذاكرا لهم ما سمعه من
خلال رحلاته إلى مكة في التجارة مما كان من أمر محمد في البلد الحرام ،
وما يحمله بين جنبيه من خطر على قريش ودينها ، مع ما يتحمله هو
وأتباعه من نكال واضطهاد ..

ولقد كان حديث الطفيل يغرى شيوخ دوس وشبابها بالسؤال
تلو السؤال عن تعاليم ذلك الدين الجديد ، وما يتحلى به أتباعه من
خصال ومآثر ، وما أحدثوة من عادات وعبادات .. ولكن الرجل
كان يتهرب من الجواب في كل مرة ، حيث يحفل هو كل شيء عن هذه
التفاصيل ، فلقد كان سادة قريش يبادرون باستقبال سيد دوس في
كل رحلة من رحلاته ، فيأثرون به بعيدا عن ذلك اللغظ المنتشر في

ربوع مكة حول دين محمد - ﷺ - ويحولون بينه - في سياسة
وكياسة - وبين رؤية صاحب ذلك الدين الجديد وكل من تبعه ،
حتى لا يستمع إليه الطفل فيتأثر به على مدى الزمن ، وربما آمن به
فتؤمن من ورائه دوس بأسرها ، فتكون الطامة الكبرى !! ولقد
كان القرشيون فوق ذلك يشوهون من أمر الدعوة الجديدة أمام
سيد دوس ، ولكنهم ما كانوا يجرأون أن يقولوا له إن محمدا
شاعر أو كاهن أو راهب ، فتضيع حججهم عنده . . فإن الطفيل
البدوي العريق ، الذي مزق سبل اليبداء بأخفاف إبله شرقا وغربا ،
ليعلم الفارق الشاسع بين سجع الكلام ومباني القرآن ، كما يجيد فهم
الرهينة وأساليبها الأعجمية حيال ذلك اللسان العربي المبين . . وإذن
ما كان من سبل أمام قريش إلا أن تشيع في أوصال سيد دوس
أن محمدا ساحر . . يفرق بين المرء وزوجه ، بل وبين الرجل
وعشيرته الأقربين !!

وامتد بساط الحديث من خلال الليلة المرحلة الإلهية ، حتى
كادت تهب على الكون نسائم الفجر مؤذنة بانفراج الأفق عن وجه
الصباح ، والجميع ما يزال متشبثا بمكانه من الأرض ، منصتا للسيد
الدومى الذى بدأ يلقي أوامره بأن تتجهز ركائبه وتشدد أمتعته
ويضائعه على ظهور إبله ، استعداد لبدء رحلته إلى مكة للتجارة على
رأس قافلة دوس . .

وقام الدوسيون يودعون سيدهم ، ويشكرونه على ما كان من

كرمه في ليلة وداعه . . وساروا في موكبه حتى بلغ ذا الكفين حيث طاف الطفيل به مرات ينشد فيها وده ، ويطلب حمايته ورعايته في وجهته . . ومن ثم بدأ طريقه عبر الصحراء . .

وعلى وقع أقدام الإبل المنظوم وهي تضرب صفحة الأرض الهشة الناعمة ، أخذ سيد دوس يترنم بأشعاره في مدح آبائه وأجداده ، ويردد أراجيزه في مآثر قومه وعشيرته . . حتى إذا ماسم تردد أشعره وقوافيه وهو يقطع الفراسخ والامبال . . هداً إلى نفسه ساعة وجد فكره من خلالها ينطلق نحو بيت إبراهيم عليه السلام ، ويتمعن في ذلك الحدث الأعظم ، التي أناره ابن عبدالله ، صلوات الله وسلامه عليه - حرباً على معتقدات أهله ، وتسفيها لأصنامهم ، المنتشرة حوله . . وبدأ لسيد دوس أن كبرياءه تنهار أن تحول قريش بينه وبين محمد - ﷺ - وكان جديراً بمثله أن يكون له حكم في شأن الرجل ، كما كان لسادة قريش فيه حكماً ، وهنا عقد الطفيل عزمه على أن يستمع إلى الرسول الجديد ، ليعرف عن حقيقة أمره كل ما يستطيع ، حتى إذا ما عاد إلى قبيلته بعد رحلته لم يتعثر لسانه في الإجابة على سؤال ، كما كان يتعثر في شأنه من قبل . . وحقائق بدستور السيادة عند العرب أن يسأل السائل عن أمر من أمور العرب في آفاق الجزيرة وربوعها ، فيكون السيد أول من يجيب . ١١

وعند مشارف مكة كان سادة قريش يهرعون لاستقباله

هو استقبال من معه من سادة دوس ، وكل مهمم أن يعدلوا به عن
أى سبيل يلقى فيه محمدا . . . ولكن الطفيل ما كان يترك فرصة إلا
انتهازها للسؤال عما كان من حقيقة الدين الجديد ، ولكنهم كانوا
يفرون من سؤاله ويتعثرون . . . تماما كما كان هو يفر من أسئلة دوس
ويتعثر !! ولكن فرقا كبيرا بين فراره وفرارهم . . . فقد كان هو يفر
عن جهل ، ولكنهم يفرون عن علم وإحاطة بالكثير !!
وضاق ذرع القرشيين بأسئلة الطفيل ، وما ملك أبو جهل بن
هشام أن قال :

— يا طفيل . . . إنك قدمت بلادنا ، وهذا الرجل الذى بين
أظرفنا قد أعضل بيننا ، وفرق جماعاتنا ، وشتت أمرنا ، وإنما قوله
كالسحر يفرق بين الرجل وبين أبيه ، وبين الرجل وبين أخيه ،
وبين الرجل وبين زوجته . . . إنا نخشى عليك وعلى قومك مثل ما
دخل علينا منه ، فلا تكلمه ولا تسمع منه . . . !!

وما زال القرشيون بالطفيل يخوفونه ويروعونه حتى انقلب
شوقه إلى لقاء محمد خوفا أن يراه محمد !! فكان سيد دوس يغدو إلى
المسجد الحرام ، وقد حشا أذنيه قطنا ، حتى إذا صادفه صاحب الدين
الجديد فى طوافه ، لا تصل إليه كلمة من قوله يكون فيها القضاء على
وحدة دوس وشرقا بين القبائل !!

وقرت عين قريش بما كان من أمر الطفيل ، واستيقنت نفسها
ألا تصل إلى أذنه أو آذان دوس منه جملة واحدة . . . حتى لقد

أجلقت عليه ، ذو القطنين ، . . إلى أن كان ذلك اليوم الذي وقف فيه سيد دوس يصلي حول الكعبة ، حيث جلس سيد عبد مناف - عليه السلام - في حلقة وحوله بعض أصحابه . . وأخذ عليه السلام يفيض من معين الحكمة العلوية ما شاء الله له أن يفيض . . فطرت معاني الخلود اذان الطفل - على الرغم منه - فهزت أوصاله هذا ، جعله يطيل في صلاته وهو لا يدري . . ليستزيد ويستزيد !! فكان كالمسبح في قامته ، مطرقا لا يتحرك ، خاشعا لا يلتفت . . ومر الوقت الطويل كالبرق الخاطف . . وراه الرسول الأعظم على حاله فأحس من أمره ما أحس . ، ثم قام من جلسته بين أصحابه وأخذ طريقه إلى بيته بأجباد .

وأخذ الطفل يعالج من أمره بعد استماعه لرسول الله ، وهو يسلط بصره على ظهره الشريف حتى اختفى عنه ، ثم أركز رأسه على كفيه ، وأخذ يقول لنفسه :

- واثكل أمي ، والله إنني لرجل لبيب شاعر ، ما يخفى على الحسن من القبيح ، فما يمنعني من أن أسمع من هذا الرجل ما يقول . . ؟
وأسرع الطفل بخطاه في الطريق خلف الرسول ، والناس لا يدور بخلدكم أنه يطلبه بحال ، فلم يعيروا لوجهه التفافا . . فقد كان الطفل في طاعته وهيبته ، يستعين بعينه النفاذتين ليستعوض بها عن يطمه مشيته في متابعتها ، حتى لا يضل الطريق إلى بيته .

وطرق سيد دوس باب رسول الله ، فخرج إليه الرسول هاشما

باشا ، وقد خرج النور من بين ثناياه ليختلط بمعاني الخلود في تكريم
الطفل وإيناسه في ساحة الحق حين يتغيه . . وكان لقاء علويا ،
انفتحت خلاله نفس الطفل لتنهل من معين النبوة ما شاء الله لها أن
تنهل . . ولم يلبث عظيم دوس أن قال :

- يا محمد . . إن قومك قالوا لي ما قالوا - لا أسمع لقولهم -
ثم إن الله أبى إلا أن يسمعني ، فسمعت قولاً حسناً ، فأعرض
على أمرك . .

وتفجرت بناييع الحكمة من قلب ابن عبدا لله . . فقرأ عليه القرآن
وعرض عليه الإسلام . . والرجل من خلال ذلك الفيض مطرق
خاشع يكاد أن يغيب . . وما أن انتهى الرسول من قوله ، حتى
بادره الطفل فقال :

- لا والله . . ما سمعت قولاً قط أحسن من هذا ، ولا أمراً
أعدل منه . . وإني أشهد ألا إله إلا الله وأنت رسول الله ١١
وامتلأت جوانح الرسول بحب الطفل ، وقد أشرق له وجهه فمسح
صدره ، ودعاه بالخير .

ونظر الطفل إلى جبين رسول الله في إطرأقه ، وأمعن فيه
البصر . . وكأنه يقرأ عليه صفحات من النور ، تسطرها معاني الخلود
في الملاء الأعلى . . وما لبث أن قال :

- يابني الله . . إني امرؤ مطاع في قومي ، وأنا راجع إليهم
فداعهم إلى الإسلام ، فادع الله أن يكون لي عوناً عليهم فيما
أدعهم إليه

ورفع النبي بصره إلى السماء .. وقال :

- اللهم اجعل له آية .. !!

(٢)

وبينما كان القرشيون يتسامرون في حلقاتهم حول الكعبة ويتذاكرون في عنف وحفيظة أمر محمد - ﷺ - وما أحدثه في مكة من تحد لعقيدتهم ، وتناول على آلهتهم .. إذ وج عليهم صائح يصبح بأعلى صوته ، ويقول :

- ألا إن سيد دوس قد أسلم على يد محمد الساعة !!

واجتمعت قريش على الرجل وقد نال منها الفزع كل منال، فهي ترى أن إسلام الطفيل بن عمرو معناه أن دوساً بأسرها قد أسلمت .. وأخذ الجميع يتساءلون في دهشة : كيف استطاع ابن عبد الله أن يجذب إليه سيد دوس في لحظة من اللحظات ، وهو لم يجتمع به من قبل قط ؟ بل كيف يتصور أحد أن الطفيل الذي آلى على نفسه أن يحتسب أذنيه قطناً طيلة مقامه في مكة ، لكي لا تصل إلى سمعه كلمة واحدة من فم صاحب الدين الجديد .. يسعى بنفسه إلى دار محمد - ﷺ - بأجباد ، لا ليسلم له قياده فحسب ، بل ليسلم له قلبه وفؤاده ، ويكون رسوله إلى قومه ، ليأتيه بهم مؤمنين قانتين طائعين ؟ ولم يمض كثير على اضطراب القرشيين ولغظهم ، حتى هل عليهم من بعيد سيد دوس في طالعته المهيبة ، وقد امتلأ وجهه بالنور والبشر .. فأمرعوا إليه يتدرونه بلين وتكاف ، ويسألونه عما كان

من أمره . . فأجابهم وقد ألقى بينهم بالقطنتين من يده . فقال :
— لقد أبى ، الله إلا أن يسمعني ، فسمعت قولاً حسناً ما يقوله
بشر . . وأشهدكم بامعشر قريش على أني كفرت بذي الكفين ،
وآمنت بمحمد ورب محمد !!

ثم أنشد يقول :

يا ذا الكفين لست من عبادك ميلادنا أقدم من ميلادك
ووقعت الكلمات الرهيبات على قلوب القرشيين غماً . . ولكنهم لم
يروا بدا من السكوت ، وإلا صارت فتنة تتجاذب أطرافها قريش
ودوس ، وتكتوى بنارها القبيلتان على السواء . . وما ملكوا إلا أن
يتسلطوا عنه لو اذا ، ويتركوه لشأنه !

وأقام الطفيل في مكة ماشاء الله أن يقيم ، ثم نادى في رجاله
بالرحيل إلى ديارهم . . حتى إذا كانوا على مقربة من ديار دوس
خطوا رحالهم على ثنية تطلهم على الحاضر ، وتلقى بأبصارهم على
مضارب القيلة . . فلقد شاءوا ألا يدخلوا على قومهم بليل ، على
عادة العرب وآدابها في السفر . .

واختل سید دوس بنفسه في خيمته ، وأخذ يسترجع تلك
الملاحظات العلوية التي قضاه بين يدي رسول الله في بيته ، حيث
استضاءت له من خلالها حنايا الوجود كله ، فشاهد الحقيقة الأزلية
وهي تلج إلى قلبه ، فتزيل منه أدران الشرك وأوضار الجهالة والظلام ،
ثم تخلق به في سماء التوحيد ، فلا يرى في الكون معبوداً غير الله . .

ولا يرى من فوز في هذه الحياة إلا أن يرفع لواء الحق بين الناس ،
ليخرجهم من عبادة أصنام لا تسمع ولا تبصر ، ولا تضر ولا تنفع ،
إلى عبادة من بيده ملكوت السموات والأرض . . وأن يبذل في
ذلك النفس والنفس إعلاء لكلمة الله ، وتحطيا لعقيدة الجاهلين . .
واستطالت بسيد دوس ساعات التفكير في جنح الليل ، ورأى
نفسه تدفعه إلى الجلوس خارج الخيمة ، حيث السماء الصافية ترسل
بضياء كواكبها على صفحة الصحراء الهادئة الممدودة نحو الآفاق
البعيدة ، فيكسبها من جلال الله في هدأة السكون معاني الخلود
وشواهد الإعجاز . . وعادت به أحاسيسه إلى لحظاته العلوية مع
رسول الله مرة أخرى ، وتذكر من خلالها دعاء النبي له بأن يكون
له آية مع قومه . . ولم يلبث أن وقع نور من السماء كالمصباح ، فاستقر
بين عينيه ، وأضاء له منازل دوس ومضاربهم . . والناس نيام 11
وأخذت روعة الآية من سيد دوس بمجامع الخوف ، أن يظن
قومه أن النور في وجهه مثله أنزلها به إله دوس ، ذو الكفين ،
لفراقه دين آبائه ومعتقدات أجداده . . ولم يملك الطفيل أن رفع
بصره إلى السماء متضرعا يقول :

— اللهم في غير وجهي ، فإني أخشى أن يظنوا أنها مثلة وقعت

في وجهي لفراق دينهم 11

ولم تكن إلا لحظة حتى انتقل النور من بين عينيه ، واستقر في
طرف سوطه ، فجعل الحاضر يترامون ذلك النور في ذلك السوط
كالقنديل المعلق 11

وآذنت الشمس بالإشراق ، ونادى سيد دوس رفاقه فهرعوا
إليه من خيامهم ، وشدوا أحمالهم فوق الإبل . . وساروا خلف
الطفل حتى ولجوا الحى بين استقبال دوس واحتفائهم . . كل ذلك
والعبون متسلطة على السوط فى يد السيد الدوسى ، تتساءل عن الدرة
الغريذة المضيفة كالتنديل فى طرفه !! وما زادت عن الظن أنها جوهره
من نفائس عكاظ ، قد ابتاعها السيد من رجال الغارات على القصور
فى أرض فارس أو الروم !!

ودخل سيد دوس داره ، فاستقبله أهله فى فرح ولهفة ، وما
كاد يجلس على فراشه حتى أتاه أبوه من حجرته ، فبادره الطفل فقال :
— إليك عني يا أبتاه ، فلست منى ولست منك !!

وقطب الشيخ جبينه ، وقد فغرفاه دهشة وغرابة ، وقال :
— ولم يابنى ؟

وأجابه الطفل من فوره ، فقال :

— إني أسلمت ، واتبعت دين محمد . .

وهزت روعة الإيمان أوصال الشيخ ، فهو لم يعهد فى ابنه غير
خفض الجناح معه من قبل ، وإذن فلا دافع لولده غير الصدق
حيث رآه فى دين محمد - ﷺ - فلم يهادن فى سبيله حتى أباه . . ومن
ثم لم يملك الأب الشيخ إلا أن ينصاع للحق حين طرق باب قلبه
ولم يلبث أن قال لولده :

— يا بنى ، دينى دينك !! فأعرضه على ، أسمع وأطع . .

فقال له الطفيل :

— اذهب واغتسل وطرثيابك ..

وعاد الشيخ مغتسلاً طاهراً ، فقرأ عليه ماوعاه من آيات الله ،
وعرض عليه قواعد الإسلام ، فأسلم ..

وأقبلت عليه زوجته تحمل ولده الحبيب عمروا ، فمالك نفسه
أن قال لها هي الأخرى :

— إليك عني ، فليست منك ولست مني !!

وتعثر لسان الزوجة الوفية وهي تنظر إليه في عجب ، وتقول :
— ولم بأبي أنت ؟!

وأجابها الطفيل على الفور :

— قد فرق بيني وبينك الإسلام ، إني أسلمت وتابعت دين محمد !!
وافترقم الزوجة عن بسمة فاترة حائرة ، وطلبت منه أن يعرض
عليها الدين الجديد .. فقال لها :

— اذهبي إلى ماء ذي الثرى ، فتطهري منه ..

وعادت الزوجة .. فقرأ عليها من القرآن ما شاء الله أن يقرأ ،
ثم عرض عليها الإسلام ، فأسلمت ، وأسلم آل بيت الطفيل جميعاً .
وانتشر في أرجاء الحى نبأ إسلام سيد دوس ، فهاهم الأمر
وزلزل كيانهم .. فأمرعوا إليه زرافات ووحداً .. واجتمعوا به
شباباً وشباباً ، يحاولون صرفه عن عقيدته الجديدة ، ويهددون مكانته
غيرهم وسيادته عليهم .. وحسب الطفيل أن العبء هين أول الأمر ،

فراح بصبر على نأيم حيث يدعوهم إلى دين الله ، ولمكنهم تكالبوا عليه ، وصاروا يزدادون بمرور الأيام قسوة في معاملته ، وشدة على أهل بيته الذين آمنوا معه . . وكما ألان لهم جانبه ، كلما ازدادوا عنتا في محاربتة ، وتسفوها لرأيه ، وتعلقا بأهلهم . . حتى غدا ذلك البيت الرفيع القدر خطأ لسخرية دوس وتآمرها واضطهادها .
وضاق الطفيل بقومه ذرعا فبدأ يتجدهم ، ويعيب أصنامهم ، ويكفر من مضى من آبائهم وأسلافهم ، حتى كاد الدوسيون أن يقتلوه وأن يقتلوا آل بيته جميعا . .

* * *

وخرج الطفيل بليل يطلب رسول الله ﷺ في مكة ، ويأتمس عنده الرأي والعون والقوة . . وكان لقاء علوبا ، نسي السيد الدوسي من خلاله كل إرهاب أصابه من قومه ، فقد كان سرور النبي به هو منتهى ما كان يأمله في هذا الوجود . .

وسأله الرسول عن حال قومه معه . فأجابه الطفيل في اقتضاب ، وقال :

— يا رسول الله ، قد غلبتني دوس . . فادع عليهم ! !

ولمكن الرسول أخذ يهون عليه ما لقيه وما قد يلقاه منهم ، وجعل يضرب له المثل من حياته الصابرة في قريش ، ثم من حياة أصحابه جميعا ، وهم ما ضون في طريقهم ، لا يهنون ولا يتزعزعون . . لأنهم إنما ينصرون الله وهو لا بد ناصرهم ما صبروا وما صدقوا . . ورجع السيد الدوسي إلى قومه وقد امتلأ قوة وأملا ، وازداد

عزة وبأساً ، وأخذ يدعوهم ويتعجب إليهم .. ولكن أنى ثقتوب المشعونة بالشرك والجهالة أن تثوب من قريب .. وهكذا مضت السنون ، والطفيل يكافح ويجاهد .. ويصبر ويحتسب ، حتى يثس منه القوم .. وبدأ البعض يفكر في الأمر ملياً ، حيث راعه نور الحق يملأ قلب سيد دوس ، فأحاله شيئاً آخر ، أقرب إلى الملائكة في صفاء الروح ، وعلو النفس ، ونقاء السريرة ..

وكان لابد للدعوة الصادقة وهي تصدر عن القلب الكبير الصابر ، أن تجد آخر الأمر تربتها الصالحة في قلوب الذين كتب الله لهم الهداية من خلقه ، فبدأت آيات من دوس تدخل في الإسلام سرا .. ولولا عمرو بن حممة ، وما بثه في القوم من ترويع وتهويل وخوف ، أن ينقم عليهم ذر المكفين ، لما حجزهم جميعاً عن دعوة الله حاجز ..

(٣)

وأذن الله لرسوله والذين آمنوا معه بالهجرة إلى المدينة ، وهناك أقيمت دعوة الإسلام ما تصبو إليه من منعة واستقرار .. وخرج المسلمون إلى بدر ، فسطروا أعظم صفحة في سجل الخلود ، ثم مضوا إلى أحد والحدق .. فجاهدوا جهاد الأبرار من الخالدين .. وفات الطفيل بن عمرو سيد دوس شرف الخروج إلى تلك الغزوات الثلاث .. حتى إذا كان الرسول الأعظم وأصحابه في طريقهم إلى خيبر ، كان الطفيل بن عمرو يشق طريقه نحو المدينة ، ومن خلفه

ثمانون بيتاً من دوس ، قد آمنوا بالله ورسوله . .

ولم يستطع سيد دوس أن يمكث بالمدينة ساعة من نهار ، فلقد دفعه شوقه لنصرة الله وجهاد أعدائه ، إلى المضي حيث يحاصر رسول الله آخر قلعة لليهود وأقواها بالجزيرة . .

وبينما المسلمون يدكون القلعة بدباباتهم ، ويقذفون بالمنجنيق جحافل الشرك من أعلاها . . والحرب يومئذ سجال ، تكتنفها حرارة النضال بين الفريقين هجوما ودفاعا . . إذ دوت في الآفاق أصوات دوس بالتكبير ، وهم يقبلون سراعا خلف سيدهم الطفيل وولده عمرو ، ويأوحن بسيوفهم في الفضاء . . ونظر الرسول إلى أصحابه وهم يتساملون عن أمر القوم ، وما لبث أن أعلمهم أنها دوس قد أقبلت لتدفع ضريبة الوفاء للإيمان . .

واقترب الركب المهيّب ، وبدأ سيد دوس على رأس كتتيته الرهيبة وقور الطالع ، قد كسا غبار الصحراء صفحة وجهه ، فأحاطها صورة من الجلال والبأس والشكيمة . . ونزل السيد الدوسي من فوق بعيره وهروا إلى الرسول فاحتضنه . . وأسرع الدوسيون من خلفه يحتضنون المسلمين بين التكبير والتهليل . .

ودارت رحي الحرب شديدة طاحنة ، والدوسيون يسطرون صفائف إخلاصهم جهادا واستبسالا . . ومن خلال الوطيس الحامي رأى الطفيل بن عمرو شدة أهل خيبر واستعصانهم على التسليم ، وبخاصة ذلك الركن الجنوبي من القلعة ، فقد كان من الكثرة والعزة

والمنعة ، بحيث عطل النصر على المسلمين .. فتقدم إلى رسول الله ﷺ وقال :

— يا رسول الله .. اجعلنا ميمتك ، واجعل شعارنا (مبرور) ١١

ولمح الرسول الأعظم نور البر بالعقيدة يشرق من وجه سيد دوس ، فأقره على ما طلب .. ثم نظر ﷺ إلى ولده الحبيب عمرو ابن الطفيل وقد أكبر فيه شدة بأسه ، وحرصه على الشهادة .. ورأى أن يبقى عليه ليكون درع الدعوة في دوس بعد أبيه لو نال الشهادة .. وطلب منه أن يعود إلى قومه يستحثهم ويستمددهم ، ولكن الغلام قال :

— وقد نشب القتال يا رسول الله تغيبني عنه ؟

فأشرق وجه الرسول عليه الصلاة والسلام بالسرور ، ومسح صدر الغلام وقال :

— أما ترضى أن تكون رسول رسول الله ؟

ونزلت الكلمات السامية بالسكينة على قلب الغلام فقال :

— يا رسول الله سمعاً وطاعة ..

ووقفت دوس خلف سيدها يواجهون ذلك السيل الدافق من رماح الأعداء وسهامهم ، بصدور ملؤها الصبر والصدق والإيمان ، ويردون عليهم بضربات لا تعرف الهوادة أو الضعف .. ولم تكن إلا ساعة حتى انخزل اليهود عن مواصلة القتال ، ورفعوا راية التسليم .. وانتهى أمرهم إلى الجلاء عن الجزيرة كلها .. ولكن بعد أن دفع المسلمون ثمن النصر جراحاً واستشهاداً .. وبعد أن دفعت

دوس من دمانها وأرواحها هي الأخرى ضريبة الكفاح الخالص
والنضال الرهيب ، في أول موطن من موطن البر والوفاء . .
وجمع المسلمون الغنائم ، فكانت أكواما هائلة من النفائس
والكنوز ، وأسهم رسول الله ﷺ لدوس كغيرهم ، فقد كان بلاؤهم
الكريم فيما أدركوه من المعركة عاملا من عوامل النصر الحاسم ،
الذي دالت به دولة اليهود كلها من أرض الإسلام . .

وعاد من دوس من عاد إلى ديارهم ، يحملون إلى قومهم حظه
من العزة في الأولى والآخرة . . أما الطفيل بن عمرو فقد أبى إلا
أن يقيم مع الرسول الأعظم في المدينة ، لا يغادرها إلا في وقادة أو
بعث أو سرية . . حتى إذا ما أذن الله لرسوله بفتح مكة ، كان الطفيل
سيدا من سادات الجيش العظيم الرهيب ، لإنهاء عهد الشرك في أخطر
قلاع وحصونه . .

وبينما الرسول ينظم جيشه لإخضاع هــسـوازن وثقيف ، إثر
الفتح ، وقريش كلها تسير في ركابه حيث يريد ، كان سيد دوس
يطلب إليه ﷺ أن يأذن له بالحقاق بقومه ، ليحرق صنمهم ذي
الكفين ، ويأتى بهم جميعا إلى حلبة الإيمان راضين أو مكرهين !! فأذن
له الرسول ، فسار إليهم تسبقه أصدااء النصر المبين لدولة التوحيد . .
فاجتمع حوله مسلمو دوس ومن خلفهم من آمن معهم من باقي
القبيلة . . فجمعوا الخطب وأشعلوا النيران ، ثم حملوا ذي الكفين
بين أيديهم وألقوا به فيها ليحترق . . والطفيل على جملة أمام الحريق
ينشد أشعاره ويقول :

يا ذا الكفين لست من عبادك ميلادنا أقدم من ميلادك
أنا حششت النار في فؤادك !!

ومن خلال تلك اللحظات الرهيبة ، أحاط مسللو دوس بمن لم
يسلم من قومهم ، وساقوهم إلى النيران المتأججة في صنمهم .. ليشهدوا
مصرع الوثنية في ديارهم ، وليرددوا خلف سيدهم في ذلك المشهد
المخيف قول الله طوعا أو كرها ، جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل
كان زهوقا .. ١١ ولم تكن إلا ساعة ، حتى خمدت النيران وذاب
ذو الكفين ، واحتل الإيمان مكان الأوهام الباطلة في القلوب ، ولم
يبق في دوس كلها رجل أو امرأة أو غلام ، إلا أعلن إسلامه لله
رب العالمين ..

...

ومكث الطفيل في قومه تسعة أشهر ، عاد بعدها مع ابنه النافع
عمرو بن الطفيل ، ليكونا إلى جوار رسول الله في المدينة ،
وليعيشا في كنفه ما شاء الله لهما أن يعيشا ، وليظلا رهن إشارته وطوع
بنانه حيال كل أمر وحال .. ولم تطل الإقامة عند مشرق النور ، فقد
قضت إرادة الله أن تستأثر بالنبي الأعظم إلى الرفيق الأعلى ، بعد أن
دخلت الجزيرة كلها في حوزة الإسلام .. فبكاه الطفيل وابنه مع
المسلمين أشد البكاء .. ثم لم يلبثوا أن رأوا رايات الشرك والكفران
ترتفع من جديد .. فارتدت بعض القبائل الضاربة في نجد واليمن ،
وأوغلت في العداوة ، وطردت من ديارها سفراء الإسلام ، وجباة

الزكاة . . ومن ثم أعلنت حربها على أهل التوحيد ، وكتلت قواها
للقضاء على المسلمين ، وسارت في ركابها شتى القبائل جرأة على أنصار
الله بعد موت رسول الله ﷺ !!

وكانت محنة عظمى ، تقلصت معها رقعة الإسلام وانكمشت ، حتى
لم تعد تعدى المدينة ومكة والطائف وعبد القيس !!

ونادى خليفة رسول الله أبو بكر بالخروج إلى حرب المرتدين ،
فاجتمع له أحد عشر جيشا . . كان الطفيل بن عمرو وابنه عمرو على
رأس دوس في المقدمة من أخطرها وجهة وأشقها طريقا . . حيث
التحجم بمحافل الوثنية ، وعلى رأسها طليحة الأسدي ، فالتقوا عليها
درسا علويا في سجل النصر فانكسرت شوكتها ، وعاد من بقي منها
إلى الإسلام راضيا أو صاغرا ليعصم دماؤه ، بعد أن حزن المسلمون
رأس طليحة !! وجاهد عمرو وابنه خلال المعركة الحامية جهاد
الأبطال الأوفياء ، وحرصا على الشهادة فلم ينالاها . . ومن ثم
اتجها على رأس الجيش الرهيب إلى نجد ، فأخضعوا قبائلها ، وأعادوها
كلها إلى حظيرة الإسلام . . ثم واصلوا طريق النصر في مقدمة الجيش
نفسه نحو اليمامة ، حيث اجتمعت فيها رموس الكفر في أضخم جيش
واجهه المسلمون . . وكانت محنة أخرى قضى فيها من قضى ، ولما يأت
النصر رغم القتال البئيس والصمود العنيد . . ليل نهار !!

وجاءت ليلة لم يستطع فيها الفريقان المتباينان عددا وعتادا
مواصلة الحرب . . المسلمون في قلتهم وغربتهم . . وأعداؤهم في كثرتهم

ومنعتهم .. فنام الجيشان من فرط الجهد ، استعدادا للصباح ..
ووقفت ريثة من المسلمين تحرس جند الإسلام في جنح الظلام ..
وغفا الطفيل بينهم إغفاءة يسيرة ، قام على أثرها مكبرا مهلا يقول
لمن حوله :

— إني رأيت رؤيا ، فاعبروها .. إني رأيت رأسي حلق ، وأنه خرج
من فمي طائر ، وأنه لقيتني امرأة فأدخلتني في فرجها .. ورأيت ابني
عمروا يطلبني طالبا حثيثا ، ثم رأيت حبيس عني !!
ونظر القوم بعضهم إلى بعض ، وقد فهموا من الرؤيا معاني شتى ..
ولم يسكوا إلا أن يقولوا للطفيل بلسان واحد :

— 'إنها رؤيا خير إن شاء الله !!

ولكن الطفيل قد ابتسم ، ونظر إلى أصحابه وقال :
— أما أنا فقد أولتها .. أما حلق رأسي فقطعها ، وأما الطائر
فروحى ، وأما المرأة التي أدخلتني في فرجها ، فالأرض تحفر لي
فأغيب فيها .. وأما طلب ابني لي ثم حبسه عني ، فإني أراه سيجتهد أن
يصبه ما أصابني !!

وأقبلت نسمات السحر ، واستيقظ المسلمون من نومهم بين
ذكر وصلاة واستغفار ، وانتظمت الصفوف ، واشتبك جند الله مع
بني حنيفة في أشد واقعة وأعنف ميدان .. وتخطى سيد دوس مقدمة
المسلمين ومن خلفه ولده عمرو ، وظلا يقاتلان في بأس واستماتة
يطلبان من خلالها نعمة الشهادة .. وما لبث السيد الدوسي وهو

يطيح برقاب الشرك يمينا وشمالا ، أن رماه رجل بسيفه المصنعت رمية غادرة وهو يفر من أمام الطفيل يأسا ، فقطع منه العنق فخر شهيدا . . أما ابنه فقد ألهمته شهادة أبيه شدة فوق شدة ، فصار يطلب الشهادة لنفسه ، ولكنه لا يراها . . فهو لم يجد أمامه من يقف من أعداء الله في سبيله وهو يحصد رقابهم حصدا ، حتى اجتمعت عليه في النم ساية قوة من الأعداء ، ظل يكافحها وحده ، حتى قطعت يده ! !

وانجالت المعركة الحامية عن ذبح زعيم الشرك مسيلمة ، وقتل الجانب العظيم من قواته ، بعد فرار من استطاع منها أن يفر . . وتم النصر للمسلمين . .

وعاد عمرو بن الطفيل في مواكب النصر إلى المدينة ، وقد ترك أباه في روضة الشهداء من أرض اليمامة . . وما كاد يصل إلى داره حتى تجمعت عليه صنوف الألم بما كان من بقائه حيا ، بعد استشهاد أبيه ولحاقه بالنعيم الأبدى في جوار رسول الله ومن مضى إلى الدار الآخرة من أصحابه الأكرمين . . وراودته هواجس تضيق أن يطول به المقام في هذا الوجود وهو لا ينال الشهادة بعد أن عاد من ميدانها بيد واحدة ، فقد حسب أن لا يجد سبيله إلى الجهاد الصادق الكامل في ميدان الوغى مرة أخرى باليد الباقية . .

وانتقل خليفة رسول الله إلى دار البقاء ، وازداد عمرو بن الطفيل ضيقا على ضيقه ، ووحشة فوق وحشته . . وانتقلت الخلافة إلى عمر ابن الخطاب ، . وأذن مؤذن الخليفة في الناس يطلب المدد ممن بقي من

أهل المدينة وما حولها ، لموافاة أبي عبيدة بن الجراح باليرموك من أرض الروم . . وعمر بن الطفيل من خلال ذلك يخاف ألا يأذن له عمر بالخروج . .

وبينما هو في بيته إذ دعاه رسول الخليفة ، فوافاه ابن الطفيل على الفور في داره ، فوجد عنده رجالا من الأنصار يقتربون من طعام ، وما أن شاهده عمر حتى أفسح له بجواره ، ولكن عمرو لم يشأ أن يأكل . . فلقد كان يحب أن يدعو الخليفة إلى القتال لا إلى الكراع . . وألح عليه ابن الخطاب ليأكل ، فجلس كارها إلى جواره من ناحية يده المبتورة ، ولم يلبث أن تنحى عن الطعام . . فقال له عمر :

— مالك ؟ لعلك تنحيت لمكان يدك ؟؟

— فأجاب عمرو وقال :

— أجل يا أمير المؤمنين !

فنظر إليه عمر بجسده كله ، وقال :

— والله لا أذوقه حتى تسوطه بيدك ، فوالله ما في القوم أحد

بعضه في الجنة غيرك . . !

ونزلت الكلمة الكريمة على قلب عمرو ، فغمرت بالامل في أن يخرج مع المسلمين إلى اليرموك . . وشعر ابن الخطاب بإحساس عمرو نحو الجهاد ، فأذن له بالخروج .

وانطلق ابن الطفيل انطلاق الأسد من حبل الأسر . . فكان في مقدمة

الصفوف .. والتقى المسلمون بالروم في حرب ضروس ، خر من
خلالها آلاف مؤلفة من الفريقين .. وازداد هجوم الأعداء شدة ،
وصمد المسلمون على قلتهم ، وبدأوا يتساقطون واحدا إثر واحد ..
ثم جاءت الرياح لأنصار الله ورسوله .. فانقلب ميزان المعركة ، وتم
النصر ، وارتفعت رايات الإسلام على أرض فلسطين كلها .. ودفع
المسلمون ثمن النصر غاليا من أرواح شهدائهم ، ، وكان من بين
أولئك الشهداء الأوفياء ، . فتي دوس وابن سيدها .. عمرو
ابن الطفيل ..

